(١٧) التقدم العلمي

التفوق العلمي

د. صلاح:

تحدثنا عن العلماء الشرعيين، لكن كما نهنا في البداية أننا أبدًا لا نقصد في هذا البرنامج أن نصنع العلماء الشرعيين فقط وإنما نريد أن نصنع العلماء في كل التخصصات الحياتية والشرعية، نحن نعيش مع كتاب الله تبارك وتعالى ومع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهي كلها تؤكد على أن يكون مجال العلم مفتوحًا في كل علم نافع، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ ويقول: «.. اللهمَّ إني أعوذُ بك من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تَشبعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها».

الراوي: زيد بن أرقم المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٧٢٢

خلاصة حكم المحدث: صحيح

و بدليل المخالفة فكل علم نافعٍ هو علم واجب التعلم، وأن يكون المسلمون ليسوا فقط يتلقون العلم عن الآخر ولكن يصححونه ويطورونه ويبتكرونه وهو ما نتمناه في حياتنا بصناعة العلماء، وبالتالي لا أريد لأب أن يُكرِه ولده على أن يدخل كلية شرعية وهو يصلح لكلية الطب أو هو الهندسة او الإعلام أو الحاسب أو ما إلى ذلك.

نحن نريد نُبَغَاء في التخصص الّذي يحبه الطالب والطالبة ويستطيع أن ينبغ فيه.

دكتور راغب حبذا لو تعطينا قراءة في واقع الصحوة الإسلامية الموجودة الآن وموقفها من هذا العلم الحياتي الموجود الآن.

د. راغب:

قضية العلم كما أشرت هي قضية مطلقة، فأي علم نافع هو علم مندوب ومطلوب ومؤكد عليه في القرآن والسنة وفي سيرة الأمة الإسلامية منذ نشأتها وإلى زماننا الآن.

هذه القضية لا يختلف عليها اثنان من علماء الأمة الإسلامية، لكن للأسف الشديد هي غير واضحة في أذهان عامة المسلمين.

وغياب هذا الوضوح له ظواهر، بعض هذه الظواهر هي ما سنوضحه.

إن الصحوة الإسلامية تنمو منذ السبعينيات وبشكل واضح وبارز في كل بلاد العالم الإسلامي وفي كل المجالات، من إندونيسيا إلى المغرب، حتى هناك صحوة إسلامية في البلاد الغربية للمسلمين هناك، لكن أن رصدت هذه الصحوة الإسلامية ستجد أن بها خللًا واضحا بارزًا.

عندما ترى شريحة الملتزمين والمتمسكين بهذا الدين والحاملين للواء الإسلامية في جامعة من الجامعات الحياتية في كلية الطب أو الهندسة أو أي فرع من العلوم الأخرى غير العلوم الشرعية، ستجد أن الأوائل على هذه الكلية ليسوا من هؤلاء الملتزمين المتمسكين بدينهم، وستجد أنها ظاهرة وليست حالة فرديةّ!

وأنا عشت في هذا الوضع وشاهدته، فأنا خريج كلية طب سنة ١٩٨٨ م وهذه الفترة كانت فترة عودة صحوة إسلامية، لكن المشكلة في الأساس هي مشكلة فِكر وفهم، فالطالب المتدين لا يفهم أن مذاكرته وتفوقه ونبوغه في هذا المجال جزء من الدين وجزء من الدعوة وجزء من نهضة الأمة، لكن كل ما ينظر إليه هو الكلام في الدعوة وهداية الناس ودعوتهم إلى الحجاب أو الصلاة وإن كان هذا أمر طيب وجميل، فهتم فقط بالدروس والمحاضرات الدينية ولا يهتم بمحاضراته الأساسية في الكلية ولا مذاكرته، ويقول أنه يحمل هموم الدعوة، لكن أليس اجتهادك في مذاكرتك دعوة؟

وينتج عن ذلك أن الأوائل والمتفوقين على الكلية من الممكن أن يكونوا من غير المسلمين أو غير الملتزمين وهم من يصبحون الأساتذة في الكلية وهم من يقودون بعد ذلك حركة العلم.

أذكر استاذًا، عندما كنت في السنة الرابعة، وكان رجلًا مسنًا كبيرًا لكنه علماني، لا ينظر للدين لا من قريب ولا من بعيد، كان يقول للطلاب لماذا تصومون رمضان وتتعبون أنفسكم وأنه يعطي الفقير المال ولا يصوم وان الصوم يُفقد التركيز والغلوكوز في الدم، وهذا الكلام غير صحيح بل الأكثر من ذلك أنه لم ينظر إلى الصوم بانه أمر رباني.

وبدلًا من أن ينشروا فكرهم امام عدد محدود من الطلاب وإنما ستكون أمام الآلاف من الطلاب.

وأقول للطالب، لم لا تجلس أنت في هذا الكرسي؟، فهو كان يدرس ويذاكر ويكافح ليصل إلى التفوق، ومن الممكن أن يقول أحدهم أن هناك واسطة ومحاباة، لكن مازال المتفوق يفرض وجوده في أي مكان، فما الذي فعلته لتصل إلى هذا المكان، هل بذلت ما عليك؟

د. صلاح:

لا أنسى في هذه المسألة حين جلست بين مجموعة طلاب دعوني لألقي كلمة ما، في أوائل التسعينات، فأحببت أن أتعرف عليهم قبل أن أبدأ المحاضرة وسألت كل منهم في أي كلية يدرس، وسمعت هذه الكلمة آذتني أذًا شديدًا، فقال أحدهم

هذا الأخ يقوم بأنشطة دعوية وبسبب هذه الأنشطة يرسب في سبيل الله! هل يمكن للإنسان أن يصوم ولا يصلي؟، هذه كلها فرائض، وهذا خلل في الفهم!

لكن في المقابل رأيت صورة مضيئة، صليت في أحد مساجد الجامعة وكان بجواري أخ ملتحيًا فتعرفت عليه وسألته عن دراسته وتقديره في كليته، فقال لي: أنا نجحت لكن رسبت في مادتين، فقلت له: ألم تستحي من الله وأنت تحمل هذه اللحية وهي وسيل للدعوة إلى الله والتمسك بدين الله ثم تسيء إلى الإسلام وأنت تحمل هذه الهيئة الإسلامية، فاهتز وقلت له: فلنأخذ عهدًا وميثاقًا أن تتفوق وأن تنحت في الصخر حتى تتفوق وان تسهر الليالي، وإذ به يتخرج ويكون من الأول على دفعته وصار معيدًا في الجامعة وصار يذكر هذا الموقف لكثير من زملاءه.

فهو كان لديه فصل بين ما يحمله من رسالة وما يجب أن يكون عليه من علم تخصصي في العلوم الحياتية.

د. راغب:

ذات مرة اتصل بي أحد الطلاب وكان في السنة الثالثة من كلية الطب وكان يريد أن يفرغ جزء كبير من حياته لدراسة العلوم الشرعية والتخصص فيها، فقلت له اتصل بي بعد خمس سنوات لتخبرني أنك أصبحت من المتفوقين فأنت عليك جهد كبير تبذله لأمتك، وفعلا اتصل بي بعد الخمس سنوات وقال لي أنه أنهى البكالوريوس ومن أوائل دفعته وأنه يريد دراسة العلوم الشرعية وأخبرته أن يؤجلها إلى بعد أن يحصل على الدكتوراه في مجال تخصصه.

فلا بد من التخصص أولًا، لكن هذه الظاهرة منتشرة فما أصل هذه المشكلة، هل هي من المشايخ الذين علموا هؤلاء الطلاب الالتزام ولم يقولوا لهم أن الدراسة هذه في ميزان حسناتهم والتفوق فيها هو إضافة للأمة الإسلامية؟ أم ماذا؟

د. صلاح:

صحيح أنه لا بد من الأمل لكن هناك الكثير من جوانب الألم في هذه الظاهرة.

ذات مرة كنت أصلي في أحد مساجد الدول العربية وصلى أمامي شاب ترى النور في وجهه تعرفت عليه وسألته عن عمله فقال لي أنه يعمل جزار!، وهو لا يشبه الجزارين أبدا فيظهر عليه أنه لا يستطيع حتى ذبح دجاجة.

فقلت له: هل هي مهنتك أم تساعد الوالد أم ماذا؟

فقال لي: أنا كان أدرس الطب في ألمانيا إلى أن وصلت إلى السنة الرابعة لكن الله بصرني وهداني على يد أحدهم أخبرني أن دراسة الطب حرام وأن أي مريض يكون سبب مرضه هو ذنب فإذا استغفر الله وتاب ويبرأ بأمر الله.

قلت له: هل بهاتين الكلمتين تركت الطب؟ ثم قلت له: هل تعتقد عصمة النبي أم لا؟

قال: نعم

قلت له: أن النبي صلى الله عليه وسلم مات مريضًا بالحمى وقال وهو مريض: «.. إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجُلانِ منكم.. »

الراوي: عبدالله بن مسعود -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٥٦٤٨

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وهو الذي قال: «أن اللهَ خلق الداءَ والدواءَ، فتداوُوا، ولا تتداوُوا بحرامٍ»

الراوي: أبو الدرداء -المحدث: الألباني

المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ١٦٣٣

خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن

فالرسول أوجب علينا أن نتداوى والأخذ بأسباب الدواء، وكان هو صل الله عليه وسلم يتداوى وكان يضع يداه في الماء ويبلل رأسه ويقول: «...أن للموت سكرات...».

الراوي: عائشة أم المؤمنين -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٤٤٤٩

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وهو المعصوم صل الله عليه وسلم.

هل من الممكن أن نقبل أن الطلاب ينصرفون عن دراستهم العلمية، فهناك من يتعمق في الدراسات الشرعية وآخر يتعمق في الدارسات الكونية ويتكاملان.

النّاس للناس من حضر وبادية *** بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

د. راغب:

أرى أننا نحتاج أن العلماء يجب أن يبصر هؤلاء الشباب بالتوازن في حياتهم، أريده أن يعرف دينه، ويقرأ القرآن بشكل صحيح ويتعلم ما يصلح حياته من الحلال والحرام ويرتبط بكتب الدين، لكن لا ينفق كل وقته فيها وينسى تخصصه في هندسة أو الكيمياء او غيرها.

أمتنا تحتاج ذلك كله، فلا يصرف كل الوقت في العلوم الشرعية ويترك التفوق وفي نفس الوقت لا يعيش حياه كاملة لدراسة هذا الفرع من العلم الكوني دون أن يعرف كيف يصلي ويصوم ويعرف أساسيات الدين والعقيدة والفقه، يجمع بين هذا وذاك، ويظل في ذهنه العلم والتفوق في مجاله.

وإن دور العلماء، والآباء والأمهات والمدرسين والمدرسات في المدارس الابتدائية، أن يفهموا الأولاد أن دراستهم هي جزء من دينهم والوقت الذي يصرفه في قراءة كتاب دراسته هذا وقت في ميزان الحسنات أن أخذت به النية لإصلاح الأمة وتغيير حركة التاريخ.

وأمتنا الرائدة كان لها مكان في الدنيا وريادة علمية عندما تفوقت في هذه العلوم كلها عن غيرها، فكان لدينا البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وجميع علماء الفقه والتفسير وفي نفس الوقت كان لدينا الرازي والاصطخري والإدريسي والعلماء الكبار الذين غيروا الأمة.

الذي ينظر إلى الأمة بهذا التكامل يُقدر هذه الأمة، وهذا من أبلغ انواع الدعوة أن ترى الأمة رائدة وسابقة لغيرها.

د. صلاح:

أتمنى أن نجد في واقعنا المعاصر كما في كتب طبقات الشافعية وطبقات المفسرين، وطبقات الأطباء لابن أصبعية الذي يتكلم عن العلماء الذين نبغوا في الطب الكتاب ٤ مجلدات.

على الإنسان أن يتعبد لله عزَّ وجلَّ بدراسته طالما وجد نفسه في هذا التخصص ويعتبر التفوق في هذا التخصص فرض عين عليه وفي نفس الوقت يأخذ من الدين، كما ذكرت، ما لا يسع المسلم جهله في العلوم الشرعية.

فلا بد أن نوقن، كما يذكر الإمام الغزالي في مقدمة كتاب الإحياء، أن العلوم النافعة كلها هي من علوم الدين، ولذلك أنا لا أحب تسمية مادة التربية الدينية ومادة الدراسات الإسلامية، فأحب أسميها العلوم الشرعية لأنها شرع الله.

والطب من العلوم الإسلامية والدينية والهندسة والفلك كل هذه علوم دينية، كما يذكر الإمام الغزالي وغيره من العلماء، ولذلك يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ أَن اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر:٢٧- ٢٨]

و يبقى السياق مفسر للآية فهنا الآية تتكلم عن العلماء ليس عالِم الفقه الشرعي فقط، بل العالِم الموسوعي.

أذكر أني عندما ذهبت اسطنبول ورأيت مِنبر مسجد السلطان أحمد، فتعجبت لأن المنبر عالي جدًا، والسنة على غير هذا من الناحية الفقهية، لكن سألتهم: كيف يستطيع الإمام أن يصعد كل هذا في كل مرة؟

قال انظر: الشيخ الّذي كان إمامًا لمسجد سلطان أحمد كان يشترط فيه عدد من الشروط:

١- أن يكون حافظ للقرآن بالقراءات المتواترة والشاذة، وهي ١٤ قراءة

٢- أن يكون وصل في الفقه إلى رتبة الاجتهاد

٣- أن يكون دارسًا متفوقًا في الرياضيات والعلوم وحاصلًا فيها على درجات متميزة وليست درجات عادية.

٤- لا بد أن يكون رياضيًا حاصلًا على تفوق في لعبة من الألعاب

٥- لا بد أن يكون لديه ثلاث لغات يتكلم ثلاث لغات على الأقل

وهذا كان جزء من عدة الشروط، وهذا الشخص بمجرد أن يعينه الخليفة إماما للمسجد تسقط ولايته عليه ويصبح هذا الإمام، الوحيد بقانون الخلافة العثمانية، هو الّذي له حق عزل الخليفة.

فحامل هذه الصفات لا بد أن يكون لديه القدرة على قيادة الأمة.

فكان هناك هذا الامتزاج بين العلوم الكونية والدينية والشرعية، وحتى لو حصل الانفصال الآن، فنحن نريد لعالِم العلوم الشرعية أن يتعلم جزءا من العلوم الحياتية ولعالِم العلوم الكونية أن يأخذ ما لا يسع المسلم جهله في أمور دينه، لكن لا بد أن يعرف كلٌ منهم أنه يجب أن يتفوق تفوقًا فريدًا في التخصص الذي دخل فيه.

ونلاحظ خلال الـ ٨٠ سنة الماضية، أن أول من تحرك بدعوة الله وحركها في العالم كله ليس الشيوخ بشكل أساسي وإنما هم طلاب وأساتذة الطب والهندسة وغيرها

على كلٍ نحن نريد أن نقول أن العلم الّذي يجب أن ننبغ فيه ونصنع به العلماء ليس فقط العلم الشرعي، فلا نريد عالِما شرعيا فقط وإنما عالِمًا مبتكرًا مخترعًا في كل العلوم الحياتية المفيدة بإذن الله تبارك وتعالى.

وصيتي لكل أب وأم، لا تُكره ولدك على تخصص لا يحبه، وإنما ساعده أن ينبغ ويتفوق ويكون مبتكرًا فيما أعده الله له وفيما يتوافق مع مَلَكَاتِه وقدراته، فلنصنع المستقبل من خلال صناعة العلماء المبتكرين المتميزين.